



كرسي جدي !

محمد يوسف كرزون - سورية



كرسي جدي مرغوب فيه من الصغار، لا أدري لماذا! مرغوب فيه من كل أحفاده، وأسيباطه.. يأتون إلى بيت جدي، وأول ما يخطر لهم هو الجلوس على ذاك الكرسي العتيق. مسند هذا الكرسي الأيمن مكسور، وقد ربطه جدي بقطعة قماش، قال له أحد أعمامي مرة: اسمح لي يا أبي أن آخذ هذا الكرسي إلى النجار، ليصنع له مسنداً جديداً، ويدهنه، ليعود جديداً.. ثار جدي، واحمر وجهه، ولكنه لم يقل لعمي سوى: لا يابني، هو يعجبني هكذا، هذا الكرسي سليم، اجلس عليه لترى كم هو متين!

رائحة الخشب في كرسي جدي لا تشبه أي رائحة! ومع ذلك نحبها، ربما لأنها رائحة كرسي جدنا. وقاعدته المجدولة من القش العتيق تظهر عليها التجاعيد، وعندما يرمي أحداً - نحن الأولاد- بجسمه بقوة فوق الكرسي يتناثر من تحته غبار ممزوج بقطع صغيرة من القش، ومع ذلك لا ينتهي منه.. كأن هذا القش لا يريد أن ينتهي مادام جدي حياً.

نحن الصغار نحبه لأن جدي عندما يعتليه، يعني ذلك أن مزاجه معتدل وأنه سيقص علينا واحدة من قصصه المحببة، وقد اعتاد جدي ألا يقص علينا حكاياته في مقعد آخر، كأن القصص مخبأة في هذا الكرسي، وجدي يقرؤها من رائحته الساحرة.

أعمامي وعماتي لا يرغبون في الكرسي، ولا يعيرونه أي انتباه، هم يفرحون بنا عندما نتحلق حول جدي وآذاننا صاغية لما سيقص علينا، يفرحون لصمتنا وهدوئنا، بعد أن نكون قد هجرنا الكرة وصرنا صامتين، كفيينا الكبار خيرنا وشرنا. وأما نحن فنفرح للحكايات التي هي أجمل من كل برامج التلفزة الملونة، يبدأ جدي حكاياته بصوت خافت، ولكن واضح النبرات، البعيدون منا عن الكرسي يرجونه:

-«يا جدي ارفع صوتك قليلاً.. قليلاً يا جدو..»
جدي لا يرد عليهم في طلباتهم الأولى، ثم عندما يراهم يكثر من الإلحاح يقول لهم:
-«أنتم بحركة أجسادكم تصدرون ضجيجاً، يبعد عنكم صوتي، اهدؤوا قليلاً، وستسمعون صوتي جيداً.

يعود الصمت، وتهدأ الحركات، ويرفع جدي من صوته قليلاً، ونتابع حكايته.
حكايات جدي كثيرة، سمعنا أغلبها أكثر من مرة،

حكاية (الست بدور) سمعناها
عشرات المرات، ومع ذلك نراها
لذيذة على أسماعنا كلما سمعناها
من جديد.

يقول جدي:

-ألا تملون من سماع الحكاية
أكثر من مرة؟

فنكاد نجيب بصوت واحد:

-لا، لا، أبدا!!

فيقول:

-اليوم سأسمعكم قصة جديدة،
وواحدة قديمة من التي تعرفونها،
فبأي قصة أبدأ؟

ويسمع رغباتنا جميعا بأننا
نريد القديمة أولا، ولاسيما إذا
خطر على بالنا عنوان قصة من
قصصه المحببة.

يبتسم جدي، ويقول:

-ولكن الجديدة أجمل!.

يرى استغرابا على وجوهنا
وانتظارا وترقباً لبدء حكايته
الأولى.

أحيانا أتسلل إلى الغرفة التي
تجتمع فيها عماتي وأعمامي، أسمع
من بعيد، قبل أن أصل، أصواتهم
العالية، المتداخلة مع بعضها،
أعمامي الأربعة وأبي، وعماتي
الثلاث، كل اثنين منهم يجمعهما
حديث، وكل واحد منهم يريد أن
يتحدث أكثر، أدخل الغرفة، أجلس
قرب أبي، يمتد وجودي مدة طويلة
ثم أنسحب من جانبه، دون أن يكون
قد انتبه إلي، أعود إلى حكاية
جدي، التي أكون قد استظهرتها
لكثرة ما سمعتها، ومع ذلك أفرح

كثيرا عندما أسمعها من جديد
بصوت جدي.

مرة حاول أبي أن يستفيد من
حيننا لجدي، فوضع آلة تسجيل قرب
الكرسي، ثم بعد أسبوع، ونحن في
بيتنا طلب منا أنا وإخوتي أن نهدأ
ونتخلق حوله ليسمعنا حكاية بصوت
جدي، كان الصوت واضحا، والآلة
ممتازة، ومع ذلك لم نمكث سوى
لحظات، لا الكرسي هنا، ولا وجه
جدي البشوش بيننا، ولا سكاكر جدي
بين أيدينا، فقد اعتاد جدي أن يوزع
علينا سكاكر مع كل جلسة حكايات،
نمسك القطعة منها، نقبض عليها،
تتعرق أيدينا، ولا يفكر أحد منا
بوضعها في فمه، إلا الصغار، وأظن
أن جدي كان يقصدهم بها، أما أنا،
فمنذ أن صار عمري خمس سنوات
لم تعد تغريني هذه القطعة، فكيف
وأنا اليوم ابن سبع؟ في النهاية قام
أخي الكبير، فأقفل آلة التسجيل،
برغبة منا جميعا، وأدرك أبي أنه لم
يستطع إدهاشنا!.

ومع كل ذلك لم يفكر أبي
بكرسي جدي، ولم يقل لنا مرة: إنه
بعد موت جدي سيأخذ الكرسي
لنفسه، أو سيتركه لأحد أعمامي..
مع أن أبي يفكر ماذا سيفعل بعد
موت جدي!

وكم من مرة سمعت إحدى
عماتي تريد أن تباع هذا الكرسي
- بعد العمر الطويل - لأول مناد
في الطرقات، كنت أضجر منها،
وأعبر لأبي عن غضبي منها،
ولكنه لم يكن يعيرني أي انتباه،

وكان الكرسي لا يعنيه، وكأنه ليس
كرسي والده..

أشعر برغبة كبيرة في الجلوس
على الكرسي، كنت من قبل أقبل أن
يجلسني جدي في حجره، ولكنني
عندما كبرت لم أعد أكتفي بذلك، بل
أتحين الفرص لأجلس عليه، أحاول
أن أعيد قص حكايات جدي..

مرة كان جدي نائما في قيلولته
المعتادة، أخذت نفسي، وتسلت إلى
الغرفة التي فيها الكرسي، جلست
عليه، وبدأت أحكي كما يحكي
جدي، حكيت ثلاث حكايات، ثلاث
حكايات ولم أمل، لم أخترها من
الطوال، بل القصار، الكرسي كان
واسعا، واسعا جدا، لم أستطع
أن أسند ظهري وأمدد رجلي في
الوقت نفسه، ولكنني استطعت
أن أجد حيلة، عندما وضعت
وسادة عريضة خلف ظهري.
أما المسندان، فلم أستطع أن
أسند يدي في وقت واحد على
المسندين، كنت أسند اليمنى مرة،
ثم اليسرى.. أختي الكبيرة كانت
تختفي وراء النافذة وتراقبني، ثم
راحت - دون أن أنتبه - تستدعي
جدي وأبي وإحدى عماتي، شعرت
بخجل كبير عندما فتحوا الباب
عليّ بهدوء، ودخلوا جميعا، ثم زال
خجلي عندما أوقفني جدي فوق
الكرسي وعانقني، عانقني عناقا
طويلا، وعندما انتهى قال لي:

- يابني، من يحفظ حكاياتي،
 ويفهمها، فسيكون في المستقبل
رجلا فهيما بمعنى الكلمة! ■